

د. زغلول راغب النجار



هذه الآية الكريمة جاءت في مطلع الثلث الأخير من سورة الفرقان ، وهي سورة مكية ، وآياتها سبع وسبعون ، وقد سميت بهذا الاسم الكريم (الفرقان) ، وهو اسم من أسماء القرآن العظيم ، لكونه فارقا بين الحق والمبطل . ويدور المحور الرئيسي للسورة حول قضية العقيدة الإسلامية ، ومن ركائزها : تنزيه الله (تعالى) عن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل نسبة الولد زورا إليه ، والمادعاء المبطل بوجود شركاء له في ملكه ، والهروب من الاعتراف بالحقيقة الجليلة أنه تعالى خالق كل شيء بتقدير دقيق ، وحكمة فية ، وأن له (أوحده) ملك السماوات والأرض دون شريك ، ولما شبيهه ، ولما منازع ، وهي من صفات الأدوهية المحقة . وتبدأ سورة الفرقان بتمجيد الله وتعظيمه ، وبالتأكيد علي أنه (تعالى) هو الذي أنزل القرآن الكريم علي خاتم أنبيائه ورسله (صلي الله عليه وسلم) ، فارقا بين الحق والمبطل ليكون نذيرا للعالمين ، في كل وقت وفي كل حين ؛ وتنعي السورة الكريمة علي الذين كفروا إنكارهم لتلك الحقيقة القائمة ، وتطاولهم علي كل من كتاب الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وإنكارهم ليوم الدين . وترد عليهم بقول الحق (تبارك وتعالى) :

قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا ﴿الفرقان: 6﴾ .

كذلك تنعي عليهم تعنتهم بالاعتراض علي بشرية خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) ، وعلي محدودية حظه من المال ، وعلي تنزل القرآن منجما ، وقد أنزل كل من الكتب السابقة دفعة واحدة ؛ وتطاولهم بطلب الرسالة السماوية من الملائكة مباشرة ؛ أو طلب رؤية الله جهرة حتي يؤمنوا به ، وهي صورة من صور المصلف الكافر الذي لا يفهم لمدلولات كل من الأدوهية والنبوة والرسالة ، حقيقة ولما معني صحيحا ...!! وتعرض السورة الكريمة لشيء من مشاهد الآخرة ، ولعذاب الكافرين في نار جهنم ، وتقارن بين هذا العذاب المهين ، وبين تكريم الله للمتقين في جنات النعيم ...!! :

كما تعرض لمصارع المكذبين في عدد من الأمم السابقة علي هذه الأرض ، وإلي شيء من مصائبهم يوم القيامة ، وندمهم علي ما قد فرطوا فيه من حقوق الله وحقوق عباده ، وعلي انصرافهم عن اتباع الرسول الخاتم والنبوي الخاتم (صلي الله عليه وسلم) ، وتوليهم لأهل الكفر والشرك والمضلال ، اتباعا لغواية الشيطان ، ولغواية الغاوين من بني الإنسان ، وعبادة لهوي النفس الذي يعمي ويصم عن رؤية الحق ، وعن الاستماع إلي حجبيته ومنطقه فيهوي ذلك بالإنسان إلي ما دون مستوي البهائم ...!! ويشكو المصطفى (صلي الله عليه وسلم) إلي ربه هجر قومه للقرآن الكريم ، وهذه المشكوي كما كانت قائمة في زمن النبوة تظل قائمة في كل زمان يهجر فيه القرآن ، ويقصي عن مناط الحكم والتشريع ...!! :

وتعرج سورة الفرقان إلي تخفيف الأمر عن رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ، بتذكيره بأن كافة الأنبياء والمرسلين من قبله قد جوبهوا من قبل أهل الكفر والمضلال بعداوة شديدة ، وبالتأكيد له علي أن الله (تعالى) ، عالم بذلك ، مطلع عليه ، ومجاز به ، وتوصيه بالصبر والمصابرة ، وبمجاهدة الكافرين بما في القرآن العظيم من حق أبلج ، وتعيينه علي ذلك بأمره بالتوكل علي الله (تعالى) ، الحي الذي لا يموت ، وبالتسبيح دوما بحمده ، وتعيد إلي ذاكرته (صلي الله عليه وسلم) ، أن دوره هو دور البشير النذير . وتقرر السورة الكريمة أن من صلف الكافرين وتطاولهم وضلالهم إنكار الله الخالق (سبحانه وتعالى) ، وعبادة من دونه ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى) :

ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر علي ربه ظهيرا ﴿الفرقان: 55﴾ .

ويقول (عز من قائل) :

وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا

﴿الفرقان 60﴾. وفي المقابل تنتقل السورة الكريمة إلي استعراض عدد من صفات عباد الرحمن ﴿﴾. في مقارنة رائعة بين صفات أهل الحق وصفات أهل المباطل ﴿﴾ مؤكدة جزاء الصالحين بالخلود في جنات النعيم ﴿﴾. في حفاوة وتكريم من الله وملائكته ﴿﴾ وتنتهي بتأكيد هوان البشرية كلها علي الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ لولما تلك الطائفة القليلة من عباده الصالحين الذين يعرفون معني الأدوية والريوية الحقة لجلال الله الخالق ﴿﴾ (﴿سبحانه وتعالى﴾) ﴿﴾ فيجأرون بالدعاء له طلبا لرحمته ورضوانه ﴿﴾. أما الغالبية الساحقة من البشر الذين كفروا بالله ﴿﴾ أو أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا ﴿﴾. واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴿﴾. لأن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ قد تعهد أن يجزيهم بسوء أعمالهم جزاء ملزما ﴿﴾. ﴿﴾

وفي معرض الاستشهاد علي صدق ما جاء بهذه السورة المباركة وردت الإشارة إلي العديد من الآيات الكونية التي منها ﴿﴾:

(1) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو خالق كل شيء ومقدره تقديرا وفق علمه وحكمته وقدرته ﴿﴾. وأنه ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴿﴾. ﴿﴾

(2) ﴿﴾ أن تشقق السماء بالغمام من بدايات انهيار النظام الكوني ﴿﴾. ﴿﴾

(3) ﴿﴾ الإشارة إلي دوران الأرض حول محورها بمد المظل وقبضه ﴿﴾. ﴿﴾

(4) ﴿﴾ تخصيص الليل للنوم والراحة ﴿﴾. وتخصيص النهار لليقظة والجري وراء المعاش ﴿﴾. ﴿﴾

(5) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴿﴾. وأنه ﴿﴾ (﴿سبحانه وتعالى﴾) ﴿﴾ هو الذي ينزل من السماء ماء ظهورا ليحيي به أرضا ميتة ﴿﴾. ويسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا ﴿﴾. ﴿﴾

(6) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو ﴿﴾. ﴿﴾

الذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَارَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ حُجَّاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿﴾. ﴿﴾

(7) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو ﴿﴾. ﴿﴾

الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ﴿﴾. .... ﴿﴾

(8) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴿﴾ (﴿أي ست مراحل متتالية﴾) ﴿﴾. ﴿﴾

هو الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴿﴾

﴿﴾. ﴿﴾

(9) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو ﴿﴾. ﴿﴾

الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴿﴾

﴿﴾. ﴿﴾

(10) ﴿﴾ أن الله ﴿﴾ (﴿تعالى﴾) ﴿﴾ هو ﴿﴾. وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه ﴿﴾. وهي إشارة ضمنية رقيقة إلي حقيقة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس ﴿﴾. وكل آية من هذه الآيات الكونية العشر تحتاج إلي مناقشة موضوعية خاصة بها ﴿﴾. ولما كان المقام لا يتسع لذلك أجدني مضطرا لقصير الحديث هنا علي آية واحدة منها ألا وهي الآية الثالثة والخمسون المشار إليها هنا في النقطة السادسة أعلاه ﴿﴾. التي تصف المتقاء ماء النهر العذب المرات بماء البحر الملح الأجاج ﴿﴾. وقبل المولوج في ذلك أري لزاما علي أن أعرض لعدد من أقوال المفسرين السابقين في شرح هذه الآية الكريمة ﴿﴾. ولشرح دلالات الغريب من ألفاظها علي مسامع أهل عصرنا الذي نسي كثير من العرب فيه لغتهم الدام ولغة كتاب دينهم العظيم ﴿﴾. ﴿﴾

من أقوال المفسرين:

